تطوّر الماديّة والإلحاد في العصر الحديث.. مدخل إلى الأسباب والآليات

د. محمد ناصر

الخلاصة

تســـعى هٰذه المقالة إلى إلقاء بعض الضوء على كيفيّة تحوّل الاتجاه المادّيّ في المجتمع الإنسانيّ من اتّجاهٍ ضئيلٍ محدودٍ، إلى منظومةٍ كاملةٍ واسعة الانتشار، كان لهـــا بالغ الأثر في تعزيز الموقف الإلحاديّ. وقد بان خلال الكلام أنّ بداية هٰذا التحوّل قد حصلت في الغرب الأوربّيّ؛ وذٰلك لأسبابٍ وظروفٍ لم تتوفّر من قبل في أيّ مكانٍ آخر، ثمّ منه بدأ الانتشار إلى سائر الأمكنة والأزمنة؛ ولذٰلك كان التركيز منصبًّا على أمرين رئيسين: الأوّل: الأسباب الحقيقيّة الّتي وقعت في الغرب الأوربّيّ ومكّنت المادّيّين من البروز وأعانتهم على الانتشـــار. الثاني: الوسائل الّتي استخدموها ويستخدمونها في نشر أنفسهم وبسط سيطرتهم.

المفردات الدلاليّة: المادّيّة، الإلحاد، المنهج الحسّيّ، المتديّنون.

(*) الدكتور محمد ناصر، لبنان، باحث في العلوم العقلية. mhna1984@gmail.com

المقدّمة

في سبيل السعي لدراســة الحالة الإلحاديّة من جوانبها كافّةً، تمهيدًا لوضع اليد على سبل العلاج والحلّ الّذي يحتاجه مجتمعنا البشري لتخطّيها؛ كان لا بــدّ من العودة إلى البداية، إلى أوائل المراحل الّتي بدأت فيها المادّيّة بالتحوّل من مجرّد فكرٍ ضئيلٍ محدودٍ، إلى منظومةٍ كاملةٍ واســعة الانتشار، والبحث عن الأســباب الّتي أدّت إلى ذٰلك، وتدقيــق المراحل الّتي مرّت بها، وتقصي الأمور الأساسيّة الّتي شكّلت عصب السيطرة المادّيّة، واستقراء الوسائل الّتي استخدمتها في الوصول إلى ما نحن عليه.

إنّ الكلام عن انتشــار المادّيّة والحالة الإلحاديّة قد يتركّز على واقعنا العربيّ والإسلاميّ، وقد ينحصر بالعالم الغربيّ، ولٰكن لا يمكن فهم انتشاره في العالم العربيّ والإسلاميّ إلّا في طول فهم كيف ولماذا انتشر في الغرب؛ لأنّه من هناك جاء ودخل. إلّا أنّ فهم ذٰلك يحتاج إلى العودة إلى البداية إلى الوقت الّذي لم يكن فيه الإلحاد والمادّيّة إلّا رأيًا شاذًّا وغريبًا يخجل من التصريح به ويخاف من التهمة به، فما الّذي حصل وما الّذي تغيّر إذن؟ تسعى هٰذه المقالة حصرًا إلى إيلاء هٰذه المرحلة قسطًا من العناية؛ عسى أن يكون كافيًا وممهّدًا لدراسة أسباب الانتشار في الواقع العربيّ والإسلاميّ، ومقدّمةً لوضع اليد على سبل العلاج.

تبدأ المقالة بعرض الحــالات الأولى والبدائيّة للمادّيّة والإلحاد، ومحاولة فهم كيف أنّ فقدان مقتضيات الانتشــار، فضلًا عــن وجود موانعه، هما المســؤولان عن اســتمرار حالته البدائيّة إلى حين تغيّر الظروف والأحوال، وبداية وجود المقتضيات وارتفاع الموانع مع مستهلّ الألفيّة الميلاديّة الثانية. وهٰذا ما قاد إلى التعرّف على طريق الازدهار المادّيّ من خلال عرض المهمّات

الّـــتي كان يتطلّع إليها الملحد، وصولًا إلى إنجازهـــا، وبالتالي تحقّق الازدهار الفعليّ للماديّة. وقد أوجب هٰـــذا ملاحظةً طفيفةً لمحاولات الدفاع النظريّ من قبل أعـــداء الماديّة، والمتمثّلة بالحركات المثاليّـــة والصوفيّة والنصوصيّة والاضطلاع بكيفيّة مســـاهمتها المبـــاشرة وغير المباشرة في إعانـــة المادّيّة والإلحاد. وبطبيعة الحال، كان لا بدّ من التعريج على الوسائل الّتي استخدمها المادّيّون لتحقيق السيطرة الاجتماعيّة على مقاليد المجتمع، وبالتالي النجاح في الوصول إلى ما يطمحون إليه، ثمّ التطرّق إلى مظاهر هٰذا النجاح وتجلّياته في عموم المجتمع.

وبما أنّ الـــشروع في ملاحظة البداية الأولى للمادّيّـــة والإلحاد، وكيفيّة تبريرها لنفسها وعملها على الانتشار، يحتاج مســـبقًا إلى الدراية التصوّريّة بكلٍّ من المادّيّة والإلحاد، وعلاقتهما بالممارســـة المعرفيّة وحقيقة اختلافهما عن مضادّاتهما من المؤلّهين والمتديّنين؛ كان لا بدّ من البدء ببيانها.

العلاقة بين المادّيّة والإلحاد وارتباطهما بالمذهب الشكّيّ

يطلق مصطلح المادّيّة للدلالة على المذهب القائل بحصر الموجودات في حدود المحسوس، وما هو جسمٌ أو جسمانيٌّ [George Novack,The Origins of Materialism, p:4,5]. ونتيجـــةً لذٰلك لـــم يعتقد المادّيّون بوجود مصدرٍ غـــير مادّيٍّ للعالم المادّيّ، أي مصدرٍ ليس بجسمٍ ولا جســـمانيٍّ. وكما هو الحال في أيّ مذهبٍ فكريٍّ وأيّ موقفٍ أو رأيٍ يتبنّاه إنسانٌ، لا يمكن فصل الرؤية النظريّة عن المعيار المعرفيّ الّذي يلجأ إليه المرء ويعتمد عليه ويعتبره مسوّغًا للركون إليه في اســـتقاء الأفكار والآراء؛ ولذٰلك كانت المادّيّة عقيدة ورؤية تفسّر الكون والعالم على أساس منهجٍ معرفيٍّ يمكن أن يسمّى بالمنهج الحسّيّ المتطرّف الّذي

يتركّب من قسمين: الأوّل التشـــكيك في المعرفة العقليّة الخالصة، والثاني: الاعتراف بالحسّ فقط مصدرًا مباشرًا للمعرفة [المصدر السابق، ص 17 و18]. وبما أنّ الحسّ لا ينفعل إلّا بما هو جســـمٌ أو جســـمانيٌّ، كانت النتيجة الطبيعية لذٰلك حصر الموجود بالمحسوس، سواءٌ كان محسوسًا بأدوات الحسّ المباشرة، أو من خلال الأدوات والأجهزة الحديثة.

إنّمـــا كانت المادّيّة ملازمةً للمذهب الحـــسّيّ المتطرّف ونتيجةً طبيعيّةً له؛ لأنّه ســـواءٌ أضيف إلى الحسّ النصُّ الدينيّ أو الشهود الصوفيّ أو المعرفة العقليّة الخالصـــة، ففي كلّ الأحوال لن يكون بالإمكان الاحتفاظ بالمادّيّة بوصفها رؤيةً كونيّـــةً؛ لأنّ كلًّا من هٰذه المصادر الثلاثة (النصّ الدينيّ، والشـــهود الصوفيّ والعقل) تقود بنحوٍ ما ـ ادّعاءً أو حقيقـــةً ـ إلى الاعتراف بمصدرٍ غير مادّيٍّ للعالم والموجودات ككلٍّ. إذ إنّ مصادر المعرفة الّتي نملكها ـ أو يدّعى أنّنا نملكها ـ محصورةٌ في هٰذه، والمادّيّ اقتصر منها على الحسّ، واعتبر العقلَ مجرّد آلة تنظيمٍ وترتيبٍ وتوظيفٍ للمعلومات الحسّـــيّة دون أن يكون له أيّ مدركاتٍ وأحكامٍ خاصّةٍ مستقلّةٍ في نشوء التصديق بها وحدوده عن الحسّ والتجربة الحسّيّة، ولم يقبل بالنصّ الدينيّ ولا بالشهود الصوفيّ، ولا بالمعرفة العقليّة الخالصة والمستقلّة في مسوّغها وحدودها عن التبعيّة للحسّ. [المصدر السابق، ص 17 ـ 35]

وبالجملة كانت المادّيّة نتيجةً منطقيّةً وطبيعيّةً للمنهج المعرفيّ المشـــكّك بالمعرفـــة العقليّة الخالصة والمقتصر على الحسّ؛ ولذٰلك كانت مجرّد تعبيرٍ عن الرؤية النظريّة الّتي يقود إليها المنهج التشكيكيّ والحسّيّ.

وفي قبـــال الرؤية المادّيّة [المصدر الســـابق، ص18] ، توجد الرؤية الإلٰهيّة الّتي تقول إنّ مصدر ومنشـــأ العالم المادّيّ عبارةٌ عن موجودٍ لا يتّصف بصفات المادّيّات من الأجســـام والجسمانيّات، وهو ما يســـمّى أحيانًا بإلٰه العالم. وقد

اختلــف البشر في تقرير مصدر هٰذه الرؤية بــين: لاجئٍ إلى نصوصٍ دينيّةٍ، ومستندٍ إلى تجربةٍ صوفيّةٍ، ومعتمدٍ على استدلالاتٍ عقليّةٍ.

ومن هنا، عندما تقع المادّيّة في مواجهة الرؤية الإلٰهيّة، يجد المادّيّ نفسه في مقام المضــادّة معها، إذ تقضي مادّيّته الإعراض عــن الاعتقاد بوجود إلٰهٍ أو مصــدرٍ غير مادّيٍّ للعالم والكون؛ وبذٰلك يكون ملحدًا، ويكون موقفه إلحادًا؛ فليس الإلحاد إلّا موقفًا سلبيًّا يتّخذه المادّيّ من مسألة وجود إلٰهٍ مجرّدٍ عن المادّة يعدّ منشأً ومصدرًا لكلّ ما هو مادّيٌّ. وبما أنّ المادّيّة بنت التشكيك بالمعرفة العقليّة الخالصة، وربيبة المنهج الحسّيّ المتطرّف، فلن يكون الإلحاد ـ إذا ما كان مبنيًّــا على الفكر ـ إلّا ثمرةً من ثمراته أيضًا، وتفصيلًا صغيرًا في لوحة المنظومة المادّيّة ككلٍّ. وإنّما قلت إذا كان مبنيًّا على الفكر؛ لأنّ هناك من يتّخذ من الإلحاد موقفًا نتيجة أسبابٍ نفسيّةٍ سبق التعرّض لها بشيءٍ من التفصيل في موضع آخر [محمد ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، ص 276].

بدايات المادّيّة والإلحاد

بالنظر إلى مــا تمّ توضيحه حــول العلاقة بين المادّيّــة والإلحاد والمنهج المعــرفيّ، فمن الواضح أنّ الكلام عن بدايات الإلحاد لن ينفصل عن الكلام عن بدايات الفكــر المادّيّ في المجتمع البشريّ، كما أنّ الكلام عن بدايات الفكر المادّيّ لن ينفصل عن الكلام عن بدايات المنهج التشكيكيّ في المعرفة العقليّة. ومن هنا، وبالرجوع إلى التاريخ المكتوب نجد أنّ الاتّجاه الشــكّيّ في المعرفة العقليّة، قد وجد منذ القدم وفي جميع الأمم الّتي وصلتنا أنباؤها بدءًا من الصين والهند [راجع: كولر، الفكــر الشرقيّ القديم، ص 201 ـ 203 وما بعدها، و368 ـ 377]، مــرورًا باليونان والرومان، وصولًا إلى الأمــم الأوربّيّة المتأخّرة [

؛On Academic Scepticism p: 3 ؛311

[The History of scepticisim From Savonarola to Bayle p: 17. غير أنّه وكما هو الحال في سائر المذاهب المعرفيّة والفكريّة الّتي لم تكن إلّا من نصيب الفئات الخاصّة في المجتمعات البشريّـــة، فلم تتعدّ إلى عوامّ النـــاس الّذين كانوا في الغالب مجرّد أتباعٍ ومقلّدين فيما يجـــدون به نفعًا لهم أو موافقةً لأهوائهم ورغباتهم. ومع ذٰلك، فإنّ ضعـــف الإدراك العقليّ عند عوامّ الناس، والرغبة التلقائيّة الانفعاليّة بالتفلّت من أيّ قيدٍ وإلزامٍ، قد يكون منشـــأً لمادّيّتهم والاقتصار على ما تراه أعينهم وما يناســـب تلقائيّتهـــم؛ ولذٰلك إذا ما لاحظنا الحوارات الّـــتي حكاها القرآن الكريم بين بعض الأنبيـــاء وأممهم، كنوحٍ مثلًا، يظهر كيف أنّ المادّيّين كانوا موجودين كشـــعوبٍ وأممٍ، وليس مجرّد حالاتٍ فرديّةٍ أو فئاتٍ خاصّةٍ من الناس، وهو ما يكشف عن أحد أمرين إمّا تدنّي المستوى العقـــليّ النظريّ إلى الحدّ الّذي أوجب انحصار الإدراك وانحســـاره على المادّة، وإمّا إلى تدنّي المستوى العقليّ العمليّ إلى الحدّ الّذي أوجب إمّا الخضوع للرغبة التلقائيّـــة الانفعاليّة بالتفلّت من أيّ تقييـــدٍ، أو الانقياد والاتّباع لأرباب الفكر المادّيّ القائم على التشـــكيك المعرفيّ، وذٰلـــك جريًا وراء التوافق مع الأهواء والنوازع التلقائيّة. بل إذا ما لاحظنا ما يذكره الشـــاعر والمفكّر أبو العلاء المعرّيّ [راجع: المعرّيّ، رسالة الغفران، ص430 وما بعدها] في (رسالة الغفران) في ردّه على (رســـالة ابن القارح)، نجد أنّ المادّيّة الناشـــئة عن التدنّي العقليّ والنفسيّ كانت موجودةً في نفوس الكثير من عامّة الناس، مصاحبةً للسذاجة الّتي كانت تجعل منهم أتباعًا مهلّلين ينعقون مع كلّ ناعقٍ.

وبعيـــدًا عن هٰـــذا وذاك، وبالرجوع إلى الأمم المتأخّرة نســـبيًّا، نجد أنّ الشيوع والانتشار في أوساط العامّة والخاصّة من الناس، قد كان من نصيب

الاعتقاد بالوجود الإلٰهيّ وبالأديان، سـواءٌ تلك الّتي تسمّى بالوثنيّة(*) أو الّتي تسمّى بالأديان «التوحيديّة» أو غيرها من البوذيّة والطاويّة والهندوسيّة؛ إذ لا نجد المادّيّة والإلحاد إلّا عند أولٰئك الّذين كانوا من المروّجين للاتّجاه الشكّيّ في المعرفة، والنفعيّ في السلوك، الّذين راح العديد منهم يحاول تفسير اختلافهم عن باقي الناس من خلال اقتراح سيناريوهات نشأة التأليه والتديّن في المجتمع البشريّ كما فعل كريتياس الأثينيّ في تصويره لكيفيّة بدء الاعتقاد بالوجود الإلٰهيّ [Ancilla to the Pre-Socratic PhilosophersKathleen Freeman, p 157, n 25]. وكما فعـل أبيقور في نقضه على فكرة العناية الإلٰهيّـة [The Epicurus Reader: Selected Writings and Testimonia, Lloyd P. Gerson, Brad, p.97]. وفيمـا عـدا هٰذه النماذج القليلة من البشر، كان الاتّجاه العامّ في المجتمع البشريّ قائمًا إمّا على التأليه المجرّد عن الدين، أو المقرون بالدين.

ثمّ إنّـه ومضافًا إلى أنّ الطابع العامّ للمجتمعات قد اسـتقرّ على التأليه والتديّن، فإنّ المادّيّين والملحدين من الشـكّاكين لم يستطيعوا أو لم يتسنّ لهـم القيام بتصدير رؤاهـم ونشرها؛ وذٰلك لأنّ عوامل انتشـارها وقبول الناس بها لم تكـن متوفّرةً بالنحو الكافي، كما أنّ موانع انتشـارها كانت قائمةً في مواجهتها.

(*) هنـاك الكثير الّذي يمكن قوله في مواجهة الفكرة المشـهورة، بل ربما المجمع عليها، حول أنّ الأديان الوثنيّـة تعتقد بتعدّد الآلهة؛ وذٰلك لأسـبابٍ كثيرةٍ منها ملاحظةٌ أبداها أبـو الريحان البيروني حول استعمال الأمم لألفاظٍ تطلقها على الذات الإلٰهيّة بنحوٍ مشتركٍ مع إطلاقها على غيرها، وأنّه بالنسبة إلى العرب كانوا يطلقون مصطلح الربّ، وبالنسبة إلى غيرهم كانوا يطلقون مصطلح الأب، وبالنسبة إلى آخرين ومنهم الهنود كانوا يطلقون مصطلح الإلٰه. وخصوصًا إذا ما لاحظنا ما يذكره أرسـطو طاليس في كتاب الخطابة عن كيفيّة صيرورة العظماء عند عامّة الناس آلهةً، بمعنى أنّهم يلجؤون إليهم ويقدّمون القرابين. ولٰكنّ التوسّع في هٰذا الأمر يحتاج إلى دراسةٍ مستقلّةٍ، تكشف عن سوء التفسير الّذي منيت به الأديان المسمّاة بالوثنيّة أو التعدّديّة.

أمّا فقدان العوامل فيبدو أنّه يرجع:

أوّلًا: إلى طبيعة ما يستند المادّيّون إليه في رؤيتهم المادّيّة، وهو التشكيك بالمعرفة العقليّة الخالصة، فإنّ تشكيكاتهم مخالفةً لما هو مألوفٌ ومشهورٌ، ولما يرونه ويعاينونه في حياتهم العاديّة، كما أنّ موقفهم المادّيّ مخالفٌ لمشهورات المجتمع ودين الدولة وملوكها. ومن الطبيعيّ أن تؤدّي هٰذه المخالفة إلى إعراض الناس عنها، وإن وجدت لها موافقًا في النزعة التلقائيّة إلى التفلّت من كلّ قيدٍ.

ثانيًا: إلى أنّ ما يتوخّى المادّيّون رفضه ومواجهته ـ وهو الدين ـ لم يكن بالنسبة إلى عامّة الناس مصدرًا يحتاج إلى بديلٍ؛ وذٰلك لأنّهم لم يكونوا بعد قد عانوا من وطأة القائمين عليه والمروّجين له، ولا كان فساد الحكّام والملوك مكتسيًا لباس الدين والمشروعيّة الإلٰهيّة، بل يبدو أنّ لائمة المشكلات والحروب السياسيّة كانت تلقى على عاتق العائلات الحاكمة والشخصيّات المسيطرة بالقوّة، ولم تكن لتأخذ طابعًا دينيًّا محضًا؛ ولذٰلك لم ينقل لنا التاريخ المكتوب تأثير صراعات الملوك والحكّام على أصل إيمان الناس ودينهم، على الأقلّ على نحوٍ واسعٍ.

ثالثًا: إلى أنّ المادّيّين والملحدين لم يكونوا في موقع تقديم بديلٍ والسعي إلى تغيير الواقع القائم وتحويله نحو الأفضل والأرقى، بل كانت كلماتهم ومحاوراتهم(*) مجرّد نقوضٍ ينظر إليها على أنّها مشاغبيّةٌ وسفسطائيّةٌ. ولم يكونوا بصدد تقديم نظمٍ بديلةٍ، بل كان المؤلّهون من الفلاسفة والحكماء هم الّذين يقومون بالاهتمام بدراسة كيفيّة التنظيم والإدارة والتدبير، كما هو معلومٌ عن سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيّين والإسكندرانيّين ومن أتى بعدهم من الفلاسفة البرهانيّين.

(*) كلماتهم الواردة في المصادر السابقة كفيلةٌ في إظهار هٰذا الأمر.

أمّا وجود الموانع، فيرجع فيما يبدو إلى أنّ السلطات الحاكمة والمسيطرة لم تكــن لترضى بتبديل الدين الّذي يحكم عقول الناس؛ وذٰلك إمّا لأنها تعتقده وتتبنّاه، أو تخاف الهرج والمرج، وإمّا لأنّ تديّن الناس بالدين يعدّ بالنســبة للحكومات والملوك وسيلةً فعّالةً لتجييشهم وتشجيعهم والتأثير عليهم وكبح جماحهم؛ ولذٰلك سيكون عمل الشكّاكين والمادّيّين والملحدين منافيًا لمصلحة الدولــة والمملكة، وليس مجرّد رأيٍ فكريٍّ ونقاشٍ علميٍّ. أضف إلى ذٰلك أنّ للنظم والأفكار الّتي تقدّمها الأديان تأثيرًا إيجابيًّا على سلوك المتديّنين، وعاملًا علاجيًّا لآلامهم، ومصدرًا لأحلامٍ سعيدةٍ وآمالٍ شديدةٍ تبعث فيهم الراحة والطمأنينة أمام انسداد الآفاق والســبل في الحياة العاديّة، وسيطرة الظالمين والمفســدين، أو التعرّض لمــا لا يمكن تجنّبه من محــنٍ ومصائب. فكلّ هٰذه الأمور لم تكــن الماديّة لتجد لها بديلًا، وعنها محيدًا، وعليها معينًا؛ ولذٰلك لم تكن لتكون موضع ترحابٍ وإقبالٍ.

وبالجملــة لم يكن في البــين ما يمكــن أن يجعل من موقــف المادّيّين والملحدين موقفًا شــعبيًّا وعامًّا؛ ولذٰلك استمرّ الحال على ما هو عليه إلى أن بدأت الظروف والأمور الاجتماعيّــة بالتغيّر، وإلى أن بدأ دور الدين وتأثيره بالتغيّر، فعند ذٰلك وجد المادّيّون والملحدون عوامل نشــر أفكارهم وسبل رفع وتغيــير الموانع والعوائق. كيف حصل ذٰلك؟! ومــا الّذي جرى؟! هٰذا ما عليَّ فيما يلي أن أقوم بتلمّس جوابه.

على طريق الازدهار

استنادًا إلى ما قدّمته يمكنني القول إنّ الواقع الاجتماعيّ والفكريّ العامّ بدأ بشكلٍ طبيعيٍّ بالتحوّل نحو انتشار الماديّة والإلحاد، عندما بدأت العوامل

المؤدية إلى انتشـــاره بالتوفّر، وشرعت الموانع الّـــتي تقف أمامه بالزوال. وقد انطلقـــت شرارة هٰذا الأمر مع بدايات الألفيّة الثانية للميلاد، وذٰلك عندما تـــمّ إعطاء صبغة التقديس للإمبراطوريّـــة الرومانيّة (1157 م). ثمّ تأجّجت بقوّةٍ خلال عمليّة نزع الأندلس من أيدي المسلمين الّتي استمرّت حتّى عام (1492 م) ثمّ خرجت المادّيّة الإلحاديّة عن السيطرة مع سقوط القسطنطينيّة (1453 م). فهٰذه الأحداث ـ ورغم كونها سياسيّةً ـ تضمّنت وأعقبت تحوّلاتٍ اجتماعيّـــةً وفكريّةً وثقافيّةً جمّةً كما هو الحال عادةً، أدّت إلى توفير العناصر الخاصّة بتحويل المادّيّة والإلحاد من مجرّد حالةٍ محدودةٍ إلى حالةٍ جمعيّةٍ تســـير نحو التعاظم والانتشار؛ ولأجل ذٰلك لا بدّ من تسليط الضوء باختصارٍ شديدٍ مناســـبٍ للمقام على الأحداث التاريخيّة بنحـــوٍ يربطها بالتحوّلات الفكريّة والاجتماعيّـــة حتّى تصير الرؤية على قدرٍ من الوضـــوح الّذي نحتاجه لمعرفة الأسباب الحقيقيّة وراء وصول المادّيّة والإلحاد إلى الحال الّذي هي عليه الآن.

ويمكنـــني في البداية أن أجمـــل العوامل الّتي تراكمـــت على مرّ القرون الماضية، وأدّت في النهاية إلى تطور الظاهرة الإلحاديّة، في ما يلي(*):

الأوّل: انقســـام الكنيسة المســـيحيّة إلى شرقيّةٍ أرثوذكســـيّةٍ، وغربيّةٍ كاثوليكيّةٍ (1054م)، وإعلان رأس الهرم في الكنيســـة الغربيّة الكاثوليكيّة قيام الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، ومن ثـــمّ عملت هٰذه الإمبراطوريّـــة على جعل عقيدتهـــا العقيدة الوحيدة الصحيحة والمقبولة، والّتي تضمنت فيما تضمّنته اعتبار السلطة البابويّة هي

(*) هٰذه الأمور جميعًا مبثوثةٌ في كلّ كتب التاريخ الّتي أرّخت لتلك الفترة، ويجدها الباحث بســـهولةٍ. ومن هٰـــذه المصادر (عصر الثورة) لأريك هوبزباوم و(أزمة الوعي الأوربّي) لبول هازار، Foundations of Western Civilization - Robert Bucholz وفي هٰـــذا الكتـــاب مصادر كثيرةٌ يمكن الرجوع إليها، وسوف يجد القارئ في لائحة المصادر عناوين أخرى.

السـلطة الشاملة والمطلقة. فسعت إلى إعمامها عبر إلغاء كلّ الرؤى الأخرى دينيّةً كانت أو غير دينيّةٍ، مادّيّةً كانت أو إلٰهيّةً. ورغم أنّ النزعة الشموليّة لم تكن أمرًا جديدًا على الفكر المسـيحيّ، بل سبق وأن بدأت في القرن الثالث الميلاديّ وتعزّزت بعد أن أصبحت المسـيحيّة الدين الرسميّ للإمبراطوريّة الرومانيّة في عهد قسـطنطين الّذي اعتنق الدين المسيحيّ، وكانت لديه رغبةٌ بتوحيد الرؤى والعقائد، وهٰذا ما تحقّق من خلال المجامع المسـكونيّة الّتي انعقـدت أكثر من مرّةٍ خلال القرون السـتّة الأولى لتطوّر المسـيحيّة لحلّ الخلافات المسيحيّة الداخلية حول طبيعة المسيح والكتاب المقدّس ومصدر العقيدة وغيرها من الأمور.

الثاني: بعد تأسـيس الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسـة، تمّ تسـخير كلّ مقدّرات الممالك الأوربّيّة لخدمة أهداف الكنيسة، ومن ضمنها:

شنّ الحروب الصليبيّة الّتي اسـتنزفت القوّة الاقتصاديّة والبشريّة للعالم الأوربّيّ، وسبّبت ما سبّبته من مشاكل اجتماعيّةٍ.

العمل على تعميـم الرؤية الكاثوليكيّة بوصفها عقيـدةً موحّدةً، فربطت سـلطان الملوك والحكّام على أراضيهم بمدى خدمتهم لتحقيق انتشـار هٰذه الرؤية ومجابهتهم ومحاربتهم لأصحاب الآراء الأخرى، وقد كانت بداية ذٰلك في مواجهة المسلمين واليهود والمادّيّين، خصوصًا بعد سقوط الدولة الأمويّة في إسـبانيا. وقد بلغت السلطة البابويّة ذروتها على يدي البابا (أنسنت الثالث) في القرن الثالث عشر للميلاد، وقد أدخلت الكنيسة في عهده مبدأً جديدًا إلى القانون الأوربّيّ يقضي بأنّه ليس للحاكم الاحتفاظ بعرشه إلّا إذا استأصل جميع المهرطقين والمناهضين لفكر الكنيسة. وإن حدث أن تردّد أميرٌ أو ملكٌ

في تنفيـــذ أمر البابا بتعذيب هٰؤلاء المخالفـــين، فإنّه يضطهده فورًا وتصادر أراضيه وتباح أملاكه لأعوان الكنيسة الّذين تحرّضهم على مهاجمته [راجع: بيوري، حرّيّة الفكر، ص 53 وما بعدها].

الثالث(*): ترجمة التراث العلمّي الذّي خلّفه اليونانيّون والرومان والمسلمون إلى اللغة اللاتينيّة، ومن ثمّ بدء العمل على تأســـيس علم الكلام المســـيحيّ اعتمادًا على الكتـــاب المقدّس وعلى كتابات الآباء في الموروث الفلســـفيّ. إلّا أنّ الترجمة شـــملت الموافق والمخالف لأهداف الكنيســـة فعادت إلى الواجهة الخلافات المسيحيّة الّتي كانت سائدةً في بدايات تأسيس المسيحيّة، وقد تجلّى ذٰلك أكثر بعد سقوط القسطنطينيّة وهجرة المثقّفين والأدباء والفنّانين منها إلى بقيّة مناطق أوربّا، كما نشـــأت خلافاتٌ جديدةٌ مماثلةٌ للّتي كانت سائدةً بين المذاهب الإسلاميّة واليهوديّة تبعًا لترجمة التراث الّذي خلّفه المسلمون واليهود، والّذي كان أهمّه من هٰذه الجهة كتب ابن سينا وابن رشدٍ وابن الهيثم والفارابيّ وابن باجة والغزاليّ وابن ميمونٍ، مضافًا إلى كتب أرسطو وأفلاطون.

ومن جهةٍ أخرى بدأت محاولاتٌ عديدةٌ لإكمال مسيرة العلوم التجريبيّة من حيث انتهى اليونانيّون والرومان واليهود والمسلمون، وكذٰلك بالنسبة إلى الفنّ والأدب. ونتيجةً لذٰلك كلّه، وجدت الكنيســـة نفسها أمام العديد من الاتّجاهات الّتي تنحى خلافًا لتوجّهاتها، سواءٌ في فهم الدين والعقيدة والكتاب المقـــدّس، أو في الاهتمام بالعلوم المختلفة خارج ســـلطة التعليم المدرسيّ الرسميّ الّتي تسيطر عليه. وكلّ ذٰلك كان مقصورًا على فئة المتعلّمين القادرين على الوصول إلى الكتب واستنســـاخها، ولٰكن باختراع الطابعة أصبح الأمر

(*) لقد تحدّثت أيضًا عن هٰذه النقطة والنقاط اللاحقة بشيءٍ من التفصيل مع الإشارة إلى المصادر في كتاب (الفلسفة.. تأسيسها ـ تلويثها ـ تحريفها) في المبحث الثالث، الفلسفة على فراش الموت، ص 57.

مختلفًا، بل أخذت المعرفة تنتشر شيئًا فشيئًا، وأصبحت الاتّجاهات المختلفة قادرةً على بثّ أفكارها ونشرها، بعد أن سيطرت الكنيسة على مقاليد التعليم، وانحصر تداول العلوم من خلال مدارسها الخاصّة الّتي كانت تقتصر على ما يخدم توجّهاتها الدينيّة، ويتناسب مع أهدافها.

الرابع: نشوب صراعاتٍ فكريّةٍ حادّةٍ بين الكنسية بقراءتها الكلاميّة للفلسفة الأرسطيّة الممزوجة بالأفلاطونيّة والأفلوطينيّة من جهةٍ، وبين ما عرف بالرشديّة تبعًا لابن رشدٍ الّذي ترجمت كتبه بما فيها تلك الّتي تهاجم المتكلّمين المسلمين وأهل الحديث، وكذا شروحاته وتلخيصاته لكتب أرسطو الّتي اختلفت في العديد من مسائلها عن النظرة الكاثوليكيّة السائدة. وانضمّ إلى الصراع ما يسمّى بالاتّجاه النصّيّ أو الوحيانيّ (الأخباريّ)، الّذي روّج للشكّ المعرفيّ في آليّات العقل، ورأى عجزه المطلق عن الخوض في قضايا الدين، وبالتالي ضرورة الاقتصار على منقولات الوحي في أخذ العقيدة والتعويل على الإيمان القلبيّ بدل الدليل العقليّ، ورفض الاحتكار في فهم الكتاب المقدس للكنيسة وتفسيره، وهٰذا ما عرف بالحركة الاعتراضيّة أو البروتستانتيّة الّتي قادها مارتن لوثر (ت 1564 م).

الخامس: اتّخاذ الكنيسة الكاثوليكيّة مجموعة تدابير وقائيّةٍ ودفاعيّةٍ في مواجهتها للتيّارات الفكريّة، فحرّمت تداول كلّ الأفكار المنافية، وحظرت نشر الكتب المخالفة، والدراسات المناوئة لها، وعمدت إلى توسيع عمل محاكم التفتيش الّتي بدأت أساسًا في إسبانيا بعد استعادة الأندلس من أيدي المسلمين، وألزمت كلّ القوى الحاكمة في المقاطعات الأوربّيّة بإيكال حلّ الأمور المتعلّقة بحماية العقيدة إليهم، فأنزلت العقوبات القاسية والحادّة بمن يثبت تورّطه، كالوضع على الخوازيق، والتعليق على أعمدة التشهير، والسجن،

والإحراق، والنفي، وحرمـــان الذرّيّة من الإرث إلى جيلين أو ثلاثةٍ، وحثّت عامّة الناس على الوشـــاية بكلّ من يعلمـــون تورّطه بأفكار الهرطقة والضلال المنافية لتعاليم الكنيسة. [المصدر السابق]

الســـادس: ونتيجةً لإمعان محاكم التفتيش في عملهـــا، بدأ التململ من الإرهاب الفكريّ ينمو شـــيئًا فشـــيئًا، حتّى برزت إلى السطح دعوات الحرّيّة الدينيّة وحرّيّة العقيدة، فراحت تتشكّل هنا وهناك جماعاتٌ مناهضةٌ تدعو إلى رفع الحظر والقيود عن الاعتقاد الدينيّ، وقد اقتصرت في بداياتها على خصوص الطوائف والمذاهب المسيحيّة، وشملت لاحقًا اليهود والمسلمين، إلّا أنّها بقيت بالنســـبة إلى الملحدين محلّ اتّفاقٍ ورضًى، حتّى أنّ جون لوك نفسه قد استثنى الملحدين في دعوته إلى التسامح والحرّيّة الدينيّة. فنشبت حروبٌ أهليّةٌ ودينيّةٌ وسياســـيّةٌ في العديد من المناطق كبريطانيا وفرنسا، قادت في النهاية إلى رفع قيود النشر والطباعة إلّا عن الكتـــب الّتي تمسّ أصل التديّن والذات الإلٰهيّة وقدســـيّة المســـيح. وبارتفاع الحظر عن النشر والطباعة لم يعد باســـتطاعة الكنيسة الكاثوليكيّة ضبط الأمور، وخسرت سيطرتها في العديد من المواطن لصالح المذهب البروتستانتيّ الّذي قام الحكّام المتعاطفون معه أو المنتمون إليه بعد استلامهم لمقاليد الحكم بتكرار التجربة الكاثوليكيّة في تحقيق الشموليّة الفكريّة، فلاقى نفس المصير الّذي لاقتـــه الكاثوليكيّة، **ولٰكن هٰذه المرّة في مواجهة المؤلّهين غير الدينيّين**؛ إذ برزت جماعاتٌ جديدةٌ من المؤلّهين ـ خصوصًا في بريطانيـــا ـ تدعو إلى اعتماد العقل حـــصرًا، فانهالت على التعاليم الدينيّة النظريّـــة والعمليّة نقدًا وتفنيدًا، حتّى وصـــل الأمر إلى رفض واقعيّة الوحي، واستبدالها بالدعوة إلى الدين الطبيعيّ الّذي يعتمد على العقل حصرًا.

لقد استطاع هٰذا الاتّجاه أن يفتّت هيبة الكنيسة وعقائدها بكلّ تيّاراتها،

ويعلّي من دور العقل وأهمّيّة العلوم الطبيعيّة، وسعى إلى إيجاد بدائل جديدةٍ عــن النظم الدينيّة للفرد والمجتمع، فنــادوا بعقليّة الاعتقاد بالوجود الإلٰهيّ والأخلاق واســتقلالهما عن الديــن، وبالحرّيّة الفكريّــة المطلقة والقيمة الإنســانيّة الموحّدة، ورفض التمييز الدينيّ بكلّ أشــكاله، فســادت النظرة المتساوية إلى كلّ الجنس البشريّ، واعتبار العالم الإنسانيّ دولةً واحدةً تجمع في كنفهــا كلّ أنواع البشر على اختلافهم. لقد اســتطاع الإلٰهيّون الرافضون للوحي والدين المسيحيّ فرض أنفسهم بقوّةٍ على الساحة الاجتماعيّة والفكريّة والسياســيّة، ولٰكنّ الأمر لم يستمرّ على هٰذه الشاكلة؛ لأنّ تيّارًا آخر كان في طريقه إلى الاســتفادة الفاعلة من كلّ ذٰلك لصالحه وهو **الاتّجاه الشكّيّ المادّيّ.** وفيما يلي بيان ذٰلك مع تفصيل ما أجمل سابقًا.

ازدهار المادّيّة

رغم أنّ التيّار الشــكّيّ في بدايات نشوئه في أوربّا كان على يدي المسيحيّين النصّيّين والصوفيّين من أمثال أوكام ومونتاني وباســكال، الّذين شــكّكوا في المعرفــة العقليّة للوجود الإلٰهيّ وقضايا الدين، غير أنّ رفع القيود عن الفكر والصحافة سمح ببروز القسم الآخر من الشكّاكين، وهم المادّيّون الّذين اتّفقوا مع الأخباريّين والصوفيّين في رفض المعرفة العقليّة في القضايا الدينيّة ومسألة الوجود الإلٰهيّ والأخلاق، بيــد أنّهم رفضوا أيضًا القبول بالوحي والمنقولات الدينيّة، واختاروا بدلًا عن ذٰلك العلــوم التجريبيّة بديلًا حصريًّا للمعرفة البشريّة. فمع تطوّر العلوم التجريبيّة الّتي اســتقلّت عن السيطرة الكنسيّة على أيدي **المؤلّهة العقليّين** (الربوبيّين) الّذين تابعوا مســيرة بناء العلوم الّتي خلّفها المســلمون والرومان واليونانيّون، وبعد صراعاتٍ حادّةٍ مع نظريّاتهم المخالفة لظاهر النصوص المقدّســة، خصوصًا تلــك المتعلّقة بعلم الفلك

كمـــا حصل مع غاليليو وكوبرنيكوس وغيرهما؛ كانت نتيجتها الأخيرة خلع القداسة عن الكنيسة ومقدّساتها، والهجوم الفكريّ على تعاليمها ونصوص كتابها، والّـــتي أدّت في النهاية إلى ضعفها وهوانهـــا لصالح المؤلّهة العقليّين أتباع العلم الإنســـانيّ، ومن أبرز هٰذه المحـــاولات محاولة **إدوارد جيبون** في كتابه (اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها)، إذ تعرّض فيه إلى أصل المســـيحيّة وكيفيّة نشـــوئها وقيمة تعاليمها، وكان له الأثر البالغ في تضعضع الموقف الكنسيّ وقيمته عند الناس(*).

أمام هٰـــذا الواقع، أصبحت الطريـــق أمام الشـــكّاكين المادّيين معبّدةً، فصبّوا جـــام أفكارهم على نقد كلٍّ من المعرفة العقليّـــة والمعرفة النقليّة عن الوحي، وهٰذا ما تمّ تتويجه بكلّ من أعمال **بيير شـــارون** [Academic Skepticism in Seventeenth-Century French Philosophy, The Charronian Legacy 1601–1662, 2014] الّذي يعدّ مؤسّـــس مدرســـة الشكّ في القرن الســـابع عشر، وقد تجلّى دوره المناهض للكنيســـة في كتابه (فن الحكمة) الّذي هاجم فيه المســـيحيّة بكلّ مبادئها. **وأعمال ديفيد هيوم** خصوصًـــا آخرها (محاوراتٌ في الدين الطبيعيّ) الّذي نقد فيه كلًّا من الوحي والمعرفة العقليّة بالوجود الإلٰهيّ، وأعمال **ديديرو** خصوصًا دائرة المعارف الّتي جمع فيها بالتعاون مع مفكّرين آخرين كلّ الآراء المناقضة والمخالفة للكنيســـة، وســـعى إلى تحويل الناس إلى المادّيّة والعلوم البشريّة عبر نقده للنظم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتربويّة والتعليميّة الّتي خلفتها الكنيسة.

الدفاع عن الدين باختراع المثاليّة

(*) راجـــع: Atheism andDeism Revalued, Heterodox Religious Identities in Britain, 1650-1800By Wayne Hudson, Diego Lucci, p 229. كما يمكن الرجوع إليه لملاحظة أحوال باقي الشخصيّات المذكورة.

لقد أدّى انتشار هٰذه المحاولات التشكيكيّة المادّيّة المفرطة إلى أن يذهب بعض المتديّنين إلى اتّجاهٍ مقلــوبٍ، فبدل أن يقوموا بالدفاع من خلال إعادة التأسيس للمعرفة العقليّة، وحلّ المشكلات المعرفيّة، ذهبوا بعيدًا في ضرب مطلق المعرفة العقلية والحسّــيّة المادّيّة معًا، فرفضــوا واقعيّة العالم بوصفه عالمًا مادّيًّا؛ وذٰلك رغبةً في تصحيح الإيمان الدينيّ، فتمّ تأســيس ما عرف بالمثاليّة(*) على يدي جورج باركلي، وزادت الأزمة المعرفيّة حول قيمة المعرفة العقليّة الّتي حاول مجموعةٌ من العقليّين ـ كما ســتأتي الإشــارة ـ الحفاظ عليها، ســواءٌ على الطريقة الكاثوليكيّة أو على الطريقة الأرسطيّة الرشديّة، أو على الطريقة الديكارتيّة.

بيد أنّ التشكيك كان أنجح؛ **لأنّه أسهل**، فاستمرّ في الانتشار أكثر فأكثر حتّى تمّ تتويجه على يدي إيمانويل كانط الّذي سعى إلى إنقاذ الإيمان والأخلاق ومهاجمة العقليّين والمتديّنين الطقوســيّين معًا، فســطّر مبادئه الشكّيّة في المعرفة الإنســانيّة، ونقد أدلّة الوجود الإلٰهيّ الّتي ضمّنها في كتابه بأسلوبٍ مؤثّرٍ وجذّابٍ، ممّا جعله قبلة المادّيّين الّذين رفعوا من شــأنه وشــأن هيوم؛ لما قدّمه هٰذان الرجلان من خدمةٍ جليلةٍ لمذهب الشــكّ المادّيّ الّذي انتصر اجتماعيًّا وسياســيًّا في النهاية على الاتّجاهات الأخرى كالمذهب الكلاميّ على الطريقة الكاثوليكيّة، والمذهب الشــكّيّ الأخباريّ أو الصوفيّ البروتستانتيّ،

(*) يبــدو لي أنّه تمّ التمهيد تاريخيًّا لاختراع المثاليّة من خلال اتجّاهين: الأوّل هو الأفكار الصوفيّة المتطرّفة حول الواقع والكون، إذ اعتبرت كلّ ما خلا الله وهمًا وسرابًا. والثاني المشــكّكون في المعرفة الحسّــيّة من أصحاب الشــكّ المتطرّف الّذين وُجدوا في عصر الانحطاط للحضارة اليونانيّة وانقلاب الأكاديميّة الأفلاطونيّة إلى أكاديميّةٍ للشكّ. فكلٌّ من هٰذين الاتّجاهين ـ مع وجود الدافع الشديد لنصرة الدين أمام التشكيكات الّتي مارســها المادّيّون حول أصل الدين وأصالة نصوصه ـ أدّيا إلى الهروب إلى الأمام من خلال القبول بالتشــكيك المطلق واعتبار كلّ شيءٍ في العقل ومن العقل، وأنّ الله هو الفاعل في هٰذا العقل. [راجع كتاب (محاورات باركلي) وكتاب (نقد العقل المحض لكانط)].

والمذهب العقليّ الخالــص عند المؤلّهة اللادينيّين مثــل **ماتيو تندال، وإيرل شافســتبري، وباروخ اســبينوزا**، وأصحاب النزعة التوفيقيّة كما هو عند **لايبنتز وكريستيان فولف**.

لقد لعبت كلّ هٰذه الأحداث (وغيرها ممّا لم أشر إليه بداعي الاختصار)، بنحوٍ متشــابكٍ في تمهيد الطريق أمام صعود المادّيّة والإلحاد وتطوّرهما. وفي المقابل عملت المادّيّة بدورها على الاستفادة من كل ذٰلك لبسط أفكارها ونشرها والســيطرة أكثر على المجتمع البشريّ؛ إذ ســعى أنصارها إلى تدعيم موقفهم التشــكيكيّ من المعرفة العقليّة الخالصة، وموقفهــم المنكر للمعرفة النقليّة الدينيّة، **مســتفيدين من الشــكّاكين المتديّنين في نقد العقل، ومن العقليّين المؤلّهة في نقد الدين**، وبذلوا قصارى جهدهم للتحفيز على اســتبدال كلّ ذٰلك بالمعرفة التجريبيّة لتأسيس العلوم الإنسانيّة الوضعيّة والطبيعيّة ـ الّتي أزكاها وأكمل مسيرتها العقليّون المؤلّهون، بعد أن تمّ نقلها من العالم الإسلاميّ ـ ثمّ عملوا بجدٍّ على إيجاد البدائل الفكريّة والعمليّة على كلّ الصعد. وهٰكذا، بدأت مرحلةٌ جديدةٌ من الفكر في الأرض الأوربّيّة سعى المادّيّون فيها إلى تقديم منظومةٍ متكاملةٍ وشاملةٍ متمثّلةٍ **بالمنهج المعرفيّ الحسّيّ** المتطرّف، **والأخلاق النفعيّة**، لتكون أساسًا ســلوكيًّا وتشريعيًّا، **والرؤية الليبراليّة** في الاجتماع والسياسة، **والنظرة المادّيّة الذرّيّة التركيبيّة** في دراسة الطبيعة والكون والإنسان. تبعها فيما بعد محاولاتٌ لتأسيس نظامٍ اقتصاديٍّ تأرجح بين الاشتراكيّة والرأسماليّة قبل أن تنتصر الأخيرة لاحقًا. وخلال كلّ ذٰلك ســعى المادّيّون إلى تغيير نظم التعليم والتربية بالنحو المتوافق ومبادئهم، حــتّى تحقّق لهم ذٰلك في العقود الأولى من القرن العشرين من خلال تأسيس منظمة اليونسكو.

تلخيص العوامل الّتي أدّت إلى ازدهار المادّيّة

ومحصّلة كلّ ما مرّ، يتبيّن أنّ العوامل الّتي كانت وراء تطوّر المادّيّة والإلحاد وازدهارهما، تنقسم إلى قسمين:

الأوّل: عوامل أوجدها أعداء المنظومة المادّيّة أنفسهم

وتتلخّص في ثلاثةٍ:

أوّلًا: الأداء المعرفيّ والسلوكيّ للاتّجاه الكلاميّ الكاثوليكيّ الّذي تلبّس بزيّ العقل والفلسفة الأرسطيّة المختلطة بالأفلاطونيّة والأفلوطينيّة، واقتصر من الفلسفة على ما يخدم توجّهاته وحرّم ما ينافيها.

ثانيًا: الأداء المعرفيّ والسلوكيّ للاتّجاهين الأخباريّ والصوفيّ، فيما عرف بالمذهب البروتستانتيّ، الّذي كان من المتصدّرين لترويج المنهج الشكّيّ في المعرفة العقليّة.

ثالثًا: الأداء المعرفيّ للمؤلّهة المنكرين للوحي، الّذي قام بهدم القيمة المعرفيّة لمصادر الوحي، واعتبار العقل مستقلًّا وسيلةً لبناء النظام العقديّ والسلوكيّ، وتنظيم الحياة البشريّة الفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، ولٰكن من دون بيان أيّ منهجٍ واضحٍ ومنضبطٍ لكيفيّة عمل هٰذا العقل، بحيث يضمن استقامته بوصفه بديلًا حقيقيًّا، ويحميه من الانهيار أمام حملة التشكيك الّتي مارسها المادّيّون. بل بقيت الدعوة إلى العقل والاستقلال العقليّ غائمةً لا يفهم منها إلّا الاستقلاليّة الفكريّة عن النصوص الدينيّة والتقاليد والأعراف الاجتماعيّة، ممّا مهّد الطريق لانتحال الانتماء إلى العقل لاحقًا من قبل الملحدين والمادّيّين أنفسهم.

الثاني: عوامل أوجدها المادّيون أنفسهم

وتتلخّص أيضًا في ثلاثة أمورٍ:

أوّلًا: التأسيس النظريّ التدريجيّ لمنظومةٍ مادّيّةٍ شاملةٍ في المنهج والفلسفة والسلوك الفرديّ والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، وهٰذا ما تحقّق بنحوٍ جليٍّ رغم الانتكاسات الّتي منيت بها واستطاعت إمّا تداركها أو إخفاءها.

ثانيًا: تنمية العلوم النظريّة التجريبيّة على خلفيّةٍ معرفيّةٍ شكّاكيّةٍ وتجريبيّةٍ متطرّفةٍ، وفلسفيّةٍ مادّيّةٍ، وهٰذا ما مكّنهم من وضع النظريّات المادّيّة حول الإنسان والكون في لباسٍ علميٍّ تجريبيٍّ، ومن ثمّ تقديم العلم والعقل في مواجهة الدين.

ثالثًا: السيطرة على مقاليد التعليم والاقتصاد وإغراق المجتمعات البشريّة بالهموم والطموحات المادّيّة الّتي أنهكت عامّة الناس، وحصرت توجّهاتهم وتطلّعاتهم بتحقيق ضرورات المعيشة أو رفاهيّتها، وكرّست جعل العلم وسيلةً لأجل ذٰلك.

تلخيص الأهداف، آليّات الإنجاز، ووسائل الترويج

بدايةً لا بدّ من أن نضع في الحسبان أنّ عمل المادّيين للسيطرة على مقاليد الاجتماع والسياسة والتعليم والاقتصاد، هو الّذي قادهم ـ في ظلّ ضعف خصومهم ـ إلى تحقيق الانتصار العمليّ والتحكم بمقاليد الأمور وسيرها خلال القرن المنصرم، وقد تمّ ذٰلك على مراحل، وبداعي تحقيق ثلاث مهمّاتٍ. وحتّى نفهم الوسائل الّتي اعتمدوها؛ لا بدّ من أن نقوم بالتوسّع قليلًا في الكشف عمّا أضمر سابقًا، وذٰلك بالإشارة إلى هٰذه المهمّات والأهداف

الّتي وضعهـــا المادّيّون أمامهم، ورأوا أنّ انتصارهم يتمّ من خلالها، ويتوقّف نجاحهم على تحقيقها. وهٰذه المهمّات هي:

المهمّة الأولى: وتقضي بالتخلّص من الســـيطرة السياســـيّة والاجتماعيّة والعلميّة للإلٰهيّين عمومًا والدينيّين بشـــكلٍ خاصٍّ، ســـواءٌ الكاثوليكيّون أو البروتستانت، وذٰلك بشكلٍ كامل من خلال خطوتين:

الأولى: هدم الأســـس المعرفيّة والعقليّة للكنيسة الكاثوليكيّة والإلٰهيّين عمومًا، وذٰلك من خلال التشـــكيك بالمعرفة العقليّـــة، وبالتالي اعتبار ما يسمّى بالفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا بحوثًا فاقدةً للقيمة العلميّة، وذٰلك على يدي **بيير شارون وديفيد هيوم وجماعة فيينا** لاحقًا، وقد صرّح اللاحق منهم بأنّه متمّمٌ لعمل السابق. وقد استفادوا كثيرًا ـ كما سبقت الإشارة ـ في عملهم هٰذا من الأعمال الّتي قدّمها الشكّاكون المتديّنون من قبيل **مونتاني وباسكال وبرونـــو وجون لوك وباركلي وإيمانويل كانط**. بل إنّ الشـــكاكين المتديّنين قد أنجزوا من هٰذه المهمة أكثر ممّا أنجزها المادّيّون؛ ولذٰلك تمّ اعتبار هٰذه المهمّة بحكم المنجزة والمنتهية منذ محاولـــة إيمانويل كانط، وتمّ تكريس العقلانيّة بوصفها مظهرًا من مظاهر المادّيّة.

والثانية: نقد منقولات الوحي والدين وكسر الحصانة والهيبة الّتي تتمتّع بها نصوصه وتعاليمه، وتصويره بمظهرٍ بشريٍّ محضٍ في نشوئه وتطوّره، وملاحقة كلّ ما يمكن اعتباره ســـلبيًّا ومشينًا في مبادئه أو أحكامه أو ممارسات أتباعه. وهٰذا مـــا تجلّى أيضًا في كتابـــات الّذين ذكرتهم ســـابقًا، مضافًا إلى كتابات **ديديـــرو وجيبون**. وقد استفاد هؤلاء كثيرًا وبشكلٍ عميقٍ ممّا قام به الإلٰهيّون الّذين أنشـــؤوا ما يســـمّى بالدين الطبيعيّ ورفضوا الوحي الإلٰهيّ. إلّا أنّ عمق الارتباط بين عامّة الناس والمصادر الدينيّة لم يكن قابلًا للكســـر والإزالة

بســـهولةٍ؛ ولذلك كان لا بدّ من اللجوء إلى دراسة الدين بوصفه حالةً بشريّةً، وجعل هٰذه الدراسة جزءًا من الدراســـات الاجتماعيّة والنفسيّة أو ما يسمّى بالإنثروبولوجيا، فكانت النتيجة تفريغ الدين من أيّ قيمةٍ إلٰهيّةٍ وجعله مجرّد تجلّياتٍ غـــير موضوعيّةٍ للأحوال الداخليّـــة والخارجيّة الّتي تعترض النفس البشـريّة، وذٰلك بعد قيام المنظّرين بدراسة الآثار والوثائق والقبائل البدائيّة والحالات الدينيّة عبر التاريخ وتفســـيرها، ثمّ عمـــل المقارنات والمقابلات لإدراك التشابهات والاختلافات بين الأديان؛ تمهيدًا لاستخلاص تفسيراتٍ كلّيّةٍ وشموليّةٍ تخدم الرؤية المادّيّة للعالم والحياة.

وقد اســـتمرّ العمل على إنجـــاز هٰذه المهمّة خلال القرنين التاســـع عشر والعشرين وإلى الآن(*)، وكانت الرؤى والنظريّات والتفسيرات الّتي خرج بها المنظّرون مصدر استفادةٍ كبيرةٍ من قبل الملحدين الجدد(**).

المهمّة الثانيـــة: تقضي بإيجاد البديل عن المنظومـــة الدينيّة المنهارة. وقد ســـبق المادّيّين قيامُ المؤلّهة اللادينيّين بمحاولة تأســـيس هٰذا البديل، حيث عملوا على إخراج الأخلاق الفاضلة من كنف الأساس الدينيّ وإرجاعها إلى حضن العقل، وعملوا على إيجاد عقـــدٍ اجتماعيٍّ جديدٍ يرعى الحرّيّة الدينيّة والسياسيّة. بيد أنّهم كانوا مجرّد حلقةٍ فاصلةٍ قصيرةٍ مهّدت عن غير قصدٍ نحو تربّع المادّيّة على عرش التغيير، منطلقين من منهجهم التشـــكيكيّ في المعرفة العقليّة، فرسموا لأنفسهم خريطةً شاملةً تمثّلت بما يلي:

(*) أشـــهر المنظّرين في هذا الحقل هـــم: Gustave Le Bon Robert, Ranulph Marett, Ernst Cassirer, Edward Burnett Tylor, Mircea Eliade, Karl Marx, Sigmund Freud, Émile Durkheim, Max Weber.

(**) من قبيل ميشـــال أونفري في كتابه (نفي اللاهوت)، وريتشـــارد دوكينز في كتابه (وهم الإلٰه)، وسام هريس في كتابه (رسالةٌ إلى الأمّة المسيحيّة)، ودانيال دنت في كتابه (كسر التعويذة)، وغيرهم.

أوّلًا: ترويج المنهــج التجريبيّ المتطرّف ليكون منهجًــا معرفيًّا وحيدًا، مستفيدين من خدمات الشكّاكين الدينيّين؛ وذٰلك ليكون بديلًا عن المنهج العقــليّ والمنهج النقليّ والمنهج الصــوفيّ، وبالتالي اعتبار العلــوم الطبيعيّة والإنســانيّة الوضعيّة مصدرًا وحيدًا للمعرفــة العلميّة؛ وذٰلك بعد أن نالت هٰذه العلوم مجدها وشهرتها على يدي المؤلّهين، أو من ليس منخرطًا أصلًا في حلبة الصراع حول الدين والألوهيّة؛ وذٰلك لتكون بديلًا عن الكتب المقدّسة وكتابات الآباء والرهبان.

ثانيًا: اعتناق الليبرالية منهجًا سياســيًّا واجتماعيًّا مستفيدين ممّا قدمه **جون لوك في رســالة التســامح وغيرها**؛ وذٰلك لتكون بديــلًا عن المنظومة الدينيّة الاستبداديّة الحاكمة على مقاليد الحياة السياسيّة والاجتماعيّة.

ثالثًا: إعادة إحياء مذهب اللذّة ليكون منهجًا أخلاقيًّا تشريعيًّا تحت اســم «النفعيّة»، وذٰلك على يدي **جرمي بنثام وجون ســتيوارت مل**؛ وذٰلك ليكون بديلًا عن الرؤية المسيحيّة للغايات السلوكيّة والأخلاقيّة الّتي كانت حاكمةً على الأعراف الاجتماعيّة والقوانين التشريعيّة.

رابعًا: تأســيس الرأســماليّة بصفتها نظامًــا اقتصاديًّا بعــد تغلّبه على الاشتراكيّة؛ وذٰلك لتوجيه الأنظار نحو الاهتمام بالتملّك والتجارة وتحصيل الرفاهية في العيش، بعد أن كانت الرؤية المســيحيّة تزدري العمل الدنيويّ، وتوجّه النفوس نحو الاقتصار على الغايات الدينيّة والأخرويّة.

خامسًــا: تكريس النظرة إلى العلماء والمتخصّصــين في العلوم الطبيعيّة ليكونــوا مرجعيّاتٍ حصريّةً لعامّة الناس في أخــذ المعرفة، وليكونوا رموزًا تملك الاحترام والتبجيــل العامّ والأهليّة والجــدارة كي تكون قدوةً؛ حتّى

يكونوا بديلًا عن الآباء والقدّيسين والرهبان وسائر الشخصيّات الدينيّة الّتي تحظى بالقداسة والاحترام لدى عامّة الناس.

سادسًا وأخيرًا: ابتداع الانتماء القوميّ والوطنيّ ليكون علقةً ورابطةً اجتماعيّةً ونفسيّةً، بحيث يصير بديلًا عن الرابطة الدينيّة والانتماء الدينيّ والمذهبيّ.

المهمة الثالثة: ترويج وترسيخ كلّ ذٰلك ـ أي ترويج بطلان المنظومة الدينيّة وفسادها ـ ونجاح وحسن المنظومة المادّيّة بلباس العقل والعلم والأخلاق الإنسانية، وذٰلك بنشرها وتقريبها من نفوس الناس وتوفير البدائل النفسيّة الّتي يحتاجها عامّة الناس؛ لتكون عوضًا عن مثيلاتها الّتي كانت توفّر لها المنظومة الدينيّة ـ وهي القدوة ـ معنى الحياة وقيمتها، وذٰلك تمهيدًا لإخراج المنظومة الدينيّة برمّتها من المجتمع الإنساني بكلّه، وليس فقط الإخراج السياسيّ والعلميّ والتشريعيّ والاقتصاديّ، بل والاجتماعيّ والفرديّ لتصير الحالة التلقائيّة الطبيعيّة عند الفرد بأن يكون ماديًّا. فبعد إعلان انحلال الإمبراطوريّة الرومانية المقدّسة في منتصف العقد الأوّل من القرن التاسع عشر، وبالتالي إخراج المنظومة اللاهوتيّة رسميًّا من الواقع السياسيّ والعلميّ والتشريعيّ والاقتصاديّ، **بقي أمام المادّيّين مهمة إخراجها من المجتمع برمّته، إلا بالقدر الّذي يكون وجودها مفيدًا ونافعًا**، وهٰذا ما توقف تحققه على امتلاك السيطرة على القنوات الّتي يتمّ من خلالها الوصول إلى أذهانهم ونفوسهم، وليس ذٰلك إلّا **التعليم والإعلام**.

آليّات الإنجاز

بما أنّ التعليم يرفد من العلم التجريبيّ العمليّ **والنظريّ** الّذي يجب أن يتمّ إظهار فضله وعظمته، وبما أنّ العلم التجريبيّ النظريّ بني على أسسٍ

معرفيّةٍ وفلسفيّةٍ خاصّةٍ تحتاج إلى ترويجٍ وترسيخٍ، فمن هنا وجد المادّيّون أنّ تحقيق المهمّة الثالثة في مواجهة المتديّنين، تحتاج منهم إلى أن يقوموا بالعمل على ثلاثة مستوياتٍ، الأوّل علميٌّ، والثاني تعليميٌّ، والثالث إعلاميٌّ.

أمّا على المستوى العلميّ فبأن لا يكتفوا بإظهار تعارض النظرة العلميّة إلى الكون مع النظرة الدينيّة ـ وهـو أمرٌ تحقّق قبل انتعاش المادّيّة، ولعب دورًا في التمهيد لسـلب الكتب الدينيّة موثوقيّتها، وهٰذا ما استفاد منه المادّيّون والإلٰهيّون اللادينيّون على حدٍّ سـواءٍ ـ بل أن يقوموا أيضًا بعدّة أمورٍ أخرى أشدّ تأثيرًا وهي:

أوّلًا: أن يظهـروا العلم الطبيعيّ **النظـريّ** بمظهر الموافق والمؤيّد والداعم للرؤية المادّيّة، وهٰذا ما تحقّق مـن خلال دخول المادّيّين في الميادين العلميّة التنظيريّة بشـكلٍ واسـعٍ، وبنائهم لبحوثهم العلميّة ونظريّاتهم الناتجة عنها في علوم النفس والاجتمـاع والفيزياء النظريّـة والبيولوجيا النظريّة، على خلفيـةٍ ماديّةٍ اختلط فيها ما هو علميٌّ تجريبيٌّ بحتٌ بما هو من نتائج النظرة الفلسـفيّة الماديّة، دون أن يكون عامّة الناس ـ بـل حتّى المتخصّصين في العلوم التجريبيّة العملية ـ على درايةٍ بأيٍّ من ذٰلك.

وثانيًا: أن يكرّسـوا النظرة المتدنّيـة إلى الفلسـفة الأولى والميتافيزيقا واعتبارهـا فاقدةً للعلميّة، وهٰذا ما تحقّق بقوّةٍ على يدي جماعة فيينا والاتّجاه الوضعيّ عمومًا، بعـد أن مهّد لهم الطريق كلٌّ من لوك وهيوم وكانط. ومن ثمّ تراهم عملوا ويعملون على ادّعاء قدرة العلوم التجريبيّة على التصدّي لحلّ كلّ المشكلات الّتي كانت تاريخيًّا تبحث من قبل الفلاسفة.

وثالثًا: أن يكرّسوا النظرة إلى علم المنطق على أنّه علمٌ صوريٌّ بحتٌ، لا يقود إلى تمييز الصواب من الخطإ، بل هو قابلٌ للاستعمال في كليهما، وهٰذا ما ساهم فيما بعد في ترميزه وجعل دوره مقصورًا على العلوم التطبيقيّة التقنيّة. أمّا ما يسمّى بالمنطق المضمونيّ أو البرهان المنطقيّ، فقد تمّ إقصاؤه بالكلّيّة بذريعة أنّه مبنيٌّ على مبادئ ميتافيزيقيّةٍ كفكرة الماهيّة والجوهر ووجود مبادئ عقليّةٍ أوّليّةٍ، وبما أنّ جميع هٰذه محلّ خلافٍ ونقدٍ، بدءًا من جون لوك مرورًا بديفيد هيوم وصولًا إلى إيمانويل كانط ولاحقًا حلقة فيينا وبرتراند راسل، فهٰذا يعني أنّه ليس منطقًا ولا يوجد شيءٌ اسمه منطقٌ مادّيٌّ ـ كما صرّح بذٰلك كانط وراسل ـ وإنّما منطقٌ صوريٌّ فقط، وهٰذا ما يعتقده كلّ الدارسين له بعد أن تمّت السيطرة على المستوى التعليميّ، وفيما يلي بيان ذٰلك(*).

أمّا على المستوى التعليميّ، فقد تمّ ذٰلك من خلال امتلاكهم السيطرة الرسميّة على المدارس والجامعات من خلال منظّمة اليونيسكو، فحدّدوا ما يدرس وما لا يدرس، ووضعوا المعالم العامّة للمراحل التعليميّة وأهدافها وغاياتها، وموادّها بالنحو المتوافق مع الرؤية المادّيّة، حتى أصبح التعليم وسيلةً نفعيّةً، ولعلّ نظرةً سريعةً على مناهج التعليم تكفي لإدراك ذٰلك.

(*) لم يعد هٰذا هو الرأي الوحيد السائد في الغرب، بل وبدءًا من أواخر القرن الماضي ومع مطلع القرن الحالي، بدأت واستمرّت محاولات التأسيس للمنطق اللاصوري إمّا تحت عنوان المنطق اللاصوريّ INFORMAL LOGIC، أو تحت عنوان: ART OF ARGUMENTATION أو تحت عنوان CRITICAL THINKING SKILLS أو تحت عنوان THE LOGIC OF DAILY LIFE. وقد عقدت المؤتمرات وأسّست المجلّات خلال العقدين الأخيرين فقط لأجل تطوير هٰذا الأمر على خلفيّة الاحساس الشديد والكبير بالحاجة إلى منطق يعطي المتعلّمين آليّاتٍ لفحص ما يعرض عليهم ويعطيهم أدوات بناء الأدلة الصحيحة والأفكار السليمة، ولٰكنّ العمل لا زال في بداياته، ويواجه صعوبات ومشكلات أهمّها في رأيي استمرار سيطرة المشهورات العصريّة الّتي بدأت من عند جون لوك وديفيد هيوم وكانط، واستمرار الأخطاء الّتي ارتكبها المنظّرون للمنطق الصوريّ الرياضيّ والرمزيّ؛ ولأجل ذلك لا زال أكبر التركيز في ذٰلك على ما يتعلّق بالمغالطات أو أنماط الاستنتاج، ولا زال الرجوع إلى التأسيس التاريخيّ والمضبوط لصناعة البرهان خجولًا جدًّا سواءٌ فيما يتعلّق بأرسطو أو شرّاحه أو المطوّرين والمكمّلين لمشروعه من أمثال الفارابيّ. ولتفصيل الكلام موضوعٌ آخر بإذن الله.

أمّا على المستوى الإعلاميّ، فرغم النجاح الّذي حقّقته المنظومة المادّيّة على المستوى التعليميّ بأن صارت مناهجها ورؤاها هي السائدة في كل أصقاع الأرض، إلّا أنّها كانت محتاجةً إلى ما هو أزيد من ذٰلك، وهو السيطرة على المستوى الإعلاميّ، والوصول إلى الشريحة الأكبر من الناس.

وسائل الترويج: العلم الشعبيّ

ومن هنا، عمدوا إلى تأسيس فروعٍ جامعيّةٍ لما سموه بالعلم الشعبيّ (popular science) وتفرغ العديد من المتخصّصين للعمل على تنزيل الخطاب العلميّ لأفهام عامّة الناس، واختراع السبل التوضيحيّة الّتي تقرب المادّة العلميّة إلى المستوى الّذي يمكن أن يدركه الإنسان العاديّ، فألّفت الكتب الكثيرة في شتّى المجالات العلميّة، وتمّ العمل على نشرها وترويجها. لا يحتاج المرء إلى بحثٍ كثيرٍ كي يرى أنّ جملةً من رموز الملحدين والمادّيّين من المتخصّصين في بعض المجالات العلميّة، كانوا ولا زالوا من المتصدّين لتحقيق هٰذه المهمّة، أمثال ريتشارد دوكينز، ولورانس ستراوس، وستيفن هوكينغ، وغيرهم الكثير.

ومن الغريب المثير للعجب، أنّ المتخصّصين سواءٌ كانوا من الملحدين أو غيرهم، تراهم جميعًا يقرّون أنّ تنزيل الخطاب إلى فهم عامّة الناس يقود إلى إعطاء نظرةٍ خاطئةٍ ومشوّهةٍ عن الحقائق العلميّة، وأنّه لا يمكن تفادي ذٰلك، ومع ذٰلك فإنّ منفعة هٰذا التنزيل والتذليل للمطالب العلميّة وهو الطريق الوحيد لربط الناس بالعلوم وجعلهم يلجؤون فيها إلى المتخصّصين بها. كما أنّهم يقبلون فكرة استغلال العلوم والمعرفة لمصالح نفعيّةٍ وغير أخلاقيّةٍ، بل يشتكون من ذٰلك خصوصًا في ما يتعلّق بعلم النفس الشعبيّ [راجع خمسون خرافةً في علم النفس: المقدّمة]. وفي المقابل لا يقبلون على الإطلاق

فكرة أن يكون الدين في خطابه لعامّة الناس قد استعمل الأسلوب نفسه في التواصل مع عامّة النـاس الّذين تفرض قابليّتهم المحدودة على الفهم وعلى التأثّر أن تتـمّ مخاطبتهم على قدر عقولهم، وبالتـالي كانت الحكمة تقتضي بالـضرورة الاقتصـار على التلميح والتقريب مع التركـيز على الجانب الأهمّ بحسـب حالهم، وهو الالتزام العمليّ بالسـلوكيّات الخلقيّة بالأسلوب الّذي يفهمونه ويؤثّر فيهم بحسـب اختلاف مراتبهم. كما أنّهم يرفضون أن تكون الأديان قد تعرّضت للاسـتغلال والتحريف من قبل البشر كما هو الحال في سـائر المجالات العلميّة والعمليّة، حيث تتدخّل الأهواء البشريّة لتقولب الصواب على شاكلة المرغوب(*).

وسائل الترويج: الفنّ والسينما

وكيفما كان، فمضافًا إلى تأسـيس أقسـامٍ في الجامعـات تعنى بصياغة العلوم بأسـاليب وحدودٍ مفهومةٍ لعامّة الناس، تمّ تأسيس جمعيّاتٍ وأقسامٍ في الجامعات تعنى بكتابة القصص المسمّاة بالخيال العلميّ، والّتي تقوم بإبراز المدى الإبداعيّ والجميل الّذي يطمح إليه العلماء والمتخصّصون ويعنى بزيادة ارتباط عامّة الناس بالعلم التجريبيّ ومتخصّصيه، ونتيجةً لذلك، كثيرًا ما صار يختلـط على القارئ ما هو حقيقيٌّ بما هو محـالٌ نتيجة هٰذه القصص، خصوصًا عندما يتمّ تحويل القصص إلى أفلامٍ سينمائيّةٍ ومسلسلاتٍ تلفازيّةٍ.

ومضافًا إلى هٰـذا وذاك، كثيرًا ما تمّ صناعة أفلامٍ وثائقيّةٍ باحترافٍ عالٍ

(*) راجع المقال التالي ليكشـف لك كيف كان ما يسمّى بالعلم الشعبّي مصدرًا مضلّلاً ووسيلةً جماهيريّةً.
Problems with Popular Science
; By John F. McGowanHome URL: http://www.jmcgowan.com/popular.pdf

حــول التاريخ المتعلّق بالديــن أو بالنهضة الّتي حدثــت في أوربّا، مروّجين من خلال ذٰلك للأفكار المادّيّة وما يخدمهــا وما يجعل لها الموثوقيّة العليا في نفوسهم. هٰذا مضافًا إلى الأفلام السينمائيّة الكثيرة الّتي كرّست لترويج الرؤى المادّيّة في العقيدة والسلوك، ووجدت لها الجماهير الغفيرة والمتابعين الكثر في شتّى أنحاء العالم بكلّ لغاتهم.

وسائل الترويج: إيجاد القدوة

هٰذا كلّه بالنســبة إلى ما يتعلّــق بإيصال خطابهم بنحــوٍ مؤثّرٍ إلى عامّة الناس، أمّا بالنســبة إلى إيجاد القدوة، فلم يعجزهــم الأمر؛ إذ عمدوا إلى إخراج مجموعةٍ مــن المتخصّصين في العلوم المختلفة من المادّيّين والملحدين من الأجواء الأكاديميّة التخصّصيّة، وإبرازهم لعامّة الناس من خلال أفلامٍ وثائقيّةٍ ومقابلاتٍ تلفازيّةٍ ومهرجاناتٍ ولقاءاتٍ ومحاضراتٍ، يقومون خلال كلّ ذٰلك بتوجيه الناس وإيجاد العلقة العاطفيّة والنفسيّة معهم، بحيث يصير هٰؤلاء قدوةً موجّهةً بديلةً عن القساوسة والرهبان أو ما يسمّى برجال الدين؛ كي يســدّوا بذٰلك فراغًا يحتاج إلى أن يملأ في نفوس عامّة الناس. وهٰذا بدوره جعل فكــرة المعارضة والتنافي بين الدين والعلم تطفو على الســطح، وكأنّها مســلّمةٌ من المســلّمات الّتي فرغ عن النزاع حولها. وقد انضمّ إلى كلّ ذٰلك الاســتفادة من التطوّر الحاصل على مستوى وســائل التواصل والاتّصال، إذ أصبح إيصال الأفكار ونشرها إلى كلّ العالم ســهلًا يسيرًا، وأصبح التأثير على النفوس يأخذ مداه الواسع إلى داخل البيوت والغرف دون أن يحتاج المرء إلى الخروج من بيته. هٰذا باختصارٍ ما يتعلّق بالآليات الّتي اعتمدها المادّيّون في حركتهم بدءًا من القرن السابع عشر وإلى الآن.

تجلّيات النجاح المادّيّ في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة

لا ينظـــر المرء اليوم إلى الواقع الّذي نعيشـــه إلّا ويرى مقدار النجاح الّذي حقّقته المنظومة المادّيّة على كلّ الصعد، سواءٌ في العالم الّذي ازدهرت فيه أو في مجتمعاتنا؛ إذ إنّ جميع ما تكلّمنا عنه من عناصر تتشكّل منها هٰذه المنظومة، نجده شائعًا سائدًا في بلادنا وبين ظهرانينا من التعليم إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى الاجتماع وإلى الإعلام. ومن الطبيعيّ أن يكون شـــكل الحياة الاجتماعيّة والفرديّة المبنيّة على أســـس المنظومة المادّيّة، مختلفًا تمامًا عمّا تقتضيه الحياة المبنيّة على أســـاسٍ غير مادّيٍّ. ولأجل ذٰلك كانت لسيطرة المادّيّة نتائج عصيبةٌ وخطيرةٌ على المجتمع، وعلى غايات الأفراد واهتماماتهم وعلى تحديد ما له قيمةٌ وليس له قيمةٌ، وبالتالي على مسار الحياة الفكريّ والعمليّ بشكلٍ كاملٍ.

وكيفما كان، وبالرجوع إلى ملاحظـــة النتائج الّتي خلّفها نجاح المنظومة المادّيّة في المجتمعات، نلاحظ ما يلي:

أوّلًا: نلاحظ من خـــلال التتبّع لحال البشر عمومًـــا في مجتمعاتنا أنّه ـ ونتيجةً لســـيطرة النظام الرأســـماليّ بقيمه وقوانينه سيطرةً تامّةً على مفاصل الحياة الاقتصاديّـــة للدول والأفراد ـ أصبح الطابع العامّ لســـلوكهم يتأرجح بين: الانهماك الكلّيّ في الســـعي إلى زيادة الثروة أو تحقيق الشهرة والجاه أو نيل الســـلطة، أو الانهماك الكلّيّ في السعي إلى تأمين الرفاهية والتسلية بالحصول على كلّ ما هو جديـــدٌ من الصناعات المتطوّرة المختلفـــة، أو الانهماك الكلّيّ في تأمين المســـتلزمات الضروريّة لكرامة العيش الّتي تثقل كاهل الطبقتين الفقيرة والوســـطى اللتين تضمّان القســـم الأغلب من الناس. أو الانهماك الكلّيّ في ممارســـة اللعب واللهو في الرياضات الّتي تحوّلت إلى ســـلعٍ يتاجر بها وبلاعبيها ومشجّعيها أصحاب رؤوس الأموال.

ونتيجةً لهٰذا الانهماك والاستغراق المبنيّ على تأسيسٍ نظريٍّ مسيطرٍ، وليس مجرّد حالةٍ عابرةٍ، أصبح العلم والتعليم مجرّد أدواتٍ لذٰلك، بل لم يعد الدين في أغلب الأحيان إلّا وسيلةً يتبعها أغلب المتديّنين لتأمين تلك الأهداف، بحيث لا تجد العلم أو الله حاضرًا في الغالب إلّا لأجل ذٰلك. وهو ما دأبت الأدبيّات الدينيّة على تسميته بالغفلة.

وقد أدّى ذٰلك بشكلٍ مباشرٍ إلى تعويم الدين، وخواء النفوس، وهشاشة البنية المعرفيّة والعقديّة والأخلاقيّة عند الغالبيّة من الناس، وبالتالي لم يعد الارتباط بالدين في أذهان الناس ونفوسهم قائمًا على أسسٍ متينةٍ وموضوعيّةٍ، بل تحوّل ليصير مجرّد تقاليد وطقوسٍ وأعرافٍ لا ينجذب الإنسان إليها إلّا تحت سلطان العاطفة والأنس، أو بداعي المصلحة المادّيّة الّتي فرضتها المنظومة الرأسماليّة. وهٰذا بدوره جعل دين الناس هشًّا قابلًا للتفريغ من مضمونه وسريع التأثّر بالنقد والتشكيك؛ تمهيدًا لإبداله بالرؤية المادّيّة للحياة لا أقل على المستوى العمليّ والسلوكيّ، بحيث لا يعود الله والقيم العلميّة والأخلاقيّة حاضرةً في طموحات وهموم الإنسان إلّا نزرًا وبنحوٍ خجولٍ ومقصورٍ على أفرادٍ محدودين أو جماعاتٍ صغيرةٍ قليلةٍ.

وقد كان هٰذا الأمر بحدّ ذاته تمهيدًا فعّالًا للهجوم النظريّ على الدين والارتباط بالإلٰه وتغييبه من النفوس والعقول، بعد أن تمّ تغييبه من الواقع العمليّ والمعيشيّ إلّا لأغراضٍ نفعيّةٍ ضيّقةٍ.

ثانيًا: إذا ما لاحظنا تأثير كلٍّ من الرؤيتين الليبراليّة والنفعيّة المسيطرتين على التعليم والسياسة والإعلام، نجد أنّهما كانتا منشأً لصيرورة مجموعةٍ من

الأفكار مشـــهوراتٍ عصريّةً، وهٰذا ما عنى طغيان النزعة الاستقلاليّة للفرد الإنســـانيّ بنحوٍ مفرطٍ، واختزال الشرّ والفســـاد والرذيلة في حدود الإضرار بالغير، بحيث مهما كنت تفعـــل ومهما كانت اختياراتك فالمهمّ أنّك لا تضرّ مباشرةً بالآخرين إضرارًا نفسيًّا أو جسديًّا فقط؛ وفيما عدا ذٰلك فليس من حقّ أحدٍ أن يملي عليك ما تكوّنه ومـــا تفعله إلّا في حدود القانون الوضعيّ المدنيّ؛ وبالتالي تمّت شرْعنة الانســـياق التلقائيّ وراء الشهوات والرغبات، وترويج مثيراتها ومحفّزاتها دون أن يكون هناك أيّ اعتبارٍ للأضرار الأخلاقيّة والمعرفيّة إلّا في الحدود المخلّة بالقانون والموجبة للهرج والمرج. والأمر عينه يقال بالنسبة إلى العديد من الرؤى المتعلّقة بآليّة الوصول إلى السلطة وتحديد من يحكم الناس، والمتعلّقة بدور الرجل والمرأة والشباب في الأسرة والمجتمع والسياســـة، إذ تمّ عزل الوظائف والأدوار عن مضامينها وأهدافها وغاياتها ومقوّمات نجاحها، وتركيز النظر على الاعتبارات الشكليّة والظاهريّة.

ثمّ، ونتيجةً لتســـويق كلّ هٰذه الأفكار من خلال البرامج والمسلســـلات والأفلام، أصبحت هٰذه الأفكار والرؤى مشـــهوراتٍ راســـخةً يشنّع على من يخالفهـــا أو ينتقدها، وهٰذا ما أدّى بدوره إلى حصول الاصطدام بين التعاليم والأهداف الدينيّة من جهةٍ والمشهورات المعاصرة من جهةٍ أخرى، بل أدّى إلى اعتبار الأخيرة حقًّا وصوابًا بالنسبة إلى عصرنا استنادًا إلى الرؤية الاجتماعيّة الأخلاقيّة النســـبيّة، وبدأت محاكمة التعاليم الدينيّة وفقًا لمشهورات العصر الّـــتي صارت مخالفة الدين لها تخلّفًا ورجعيّةً، وهٰذا ما أدّى في نهاية الأمر إلى لجوء العديد من المتديّنين أو المنظّرين في المســـائل الدينيّة إلى تحويل وتبديل المعايير الدينية لتصير متوافقةً معها، بما فيها من إفراطٍ وتفريطٍ بدل العمل على تهذيبها وتنقيتها منهما.

ومــع اجتياح هٰذه الأفكار لكلّ طبقات المجتمــع، امتلك الكثير من عامّة الناس الجرأة على تقييم التعاليم السلوكيّة العقليّة والشرعيّة من منظار مقبولات الرؤى المعاصرة ومشــهوراتها، بما فيها من إفراطٍ وتفريطٍ، فنشأت حالات التشنيع والاستقباح لكثيرٍ من الأحكام والرؤى الّتي يقود إليها العقل أو يهدي إليها الشرع، وبالتالي شيئًا فشــيئًا صارت القضايا العقليّة العمليّة والقضايا الشرعيّة موضوعات جدلٍ ونقاشٍ واســعٍ بين عامّة النــاس، وهٰذا ما أدّى إلى انتهاك الحرمة وكسر الهيبة الّتي كانت تتمتّع بها، تمهيدًا إلى عزلها وإلغائها من ساحة الحياة أو تحويل الدين إلى مجرّد ثقافةٍ متوائمةٍ مع الواقع المعاصر المنحوت على قياس الآمال والطموحات الّتي ترمي إليها المنظومة المادّيّة.

ثالثًا: نتيجةً للنجاح الباهر في العلــوم التجريبيّة والتطبيقيّة ودورها في تأمين الحاجات المادّيّة البشريّة، ونتيجةً للسيطرة الرسميّة على مقاليد التعليم ومراكز البحوث العلميّة، تمّ تكريس النظرة إلى العلوم المعتمدة رســميًّا على أنّها وحدها الّتي تملك الموثوقيّة، وبالتالي تمّ رفع شــعار العقلانيّة العلميّة بوصفها صفةً مميّزةً لمنهج هٰذه العلــوم، في قبال ما ليس علمًا بل مجرّد جهدٍ إنســانيٍّ مبذولٍ تاريخيًّا ولا موضوعيّة له، وجعلوا كلًّا من الفلســفة الأولى (الميتافيزيقا) والفلســفة العمليّة والتعاليم الدينيّة بحوثًا من هٰذا النوع. وقد أصبحت هٰذه النظرة إلى العلوم مكرّســةً في كلّ الأبواق الإعلاميّة بدءًا من المدرسة وصولًا إلى المذياع والتلفاز، ثمّ الإنترنيت، وأصبح المتخصّصون في هٰذه العلوم وحدهم الّذين يملكــون أهليّة الوصف بالعلماء، وصار إطلاق اللفظ ينصرف إليهم كما أنّ مصطلح العلم ينصرف إلى العلوم التجريبيّة. وإذ أصبح المتخصّصون في العلوم الأكاديميّة يملكون هٰذه الخصّيصة والمكانة في

نفوس عامّة الناس كما أرادها القائمون على سياسة المجتمع ثقافيًّا وتعليميًّا، لم يكــن أمام الناس إلّا اللجوء إليهم في كلّ منــاحي الحياة، وبالأخص فيما يتعلّق بهمومهم اليوميّة وسلوكيّاتهم العاديّة في المجتمع والأسرة وعلى الصعيد الفرديّ، إذ يتــمّ اللجوء إلى المتخصّصين لأخذ التعليمات والاستشــارات والتوجيهات في كلّ الأمور الســلوكيّة، سواءٌ فيما يتعلّق بعلم النفس أو علم الاجتماع، أو علم التربية، فضــلًا عن القانون الوضعيّ المتعلّق بالمعاملات التجاريّة والصناعيّة وما شاكلها. ومن هنا، لم يكن هٰذا كلّه ليعني إلّا إخراج الدين عن أن يكون محلّ حاجةٍ في أيّ شأنٍ من شؤون الحياة الحقيقيّة الجادّة، فسقطت مرجعيّته على المستوى العمليّ عند كثيرين، إلّا فيما يتعلّق بالجانب العباديّ الّذي انحصر اهتمام أكثر النــاس بالدين من خلاله فقط، وذٰلك لما لعبتــه العبادات من دور الملاذ والملجإ في حالات المحن والمصائب، وصارت وسيلةً مريحةً وغير مكلفةٍ، لمحاولة تحقيق الآمال المادّيّة من مالٍ وجاهٍ وصحّةٍ بدنيّةٍ وهلمّ جرًّا.

رابعًا: بعد أن حصل التطوّر الكبير على مستوى أدوات التواصل في العالم أجمع، وانكبّ الناس خاصّةً وعامّةً عليهــا، أصبح المجتمع بكلّ أطيافه في حالةٍ من التلقّي التلقائيّ لكلّ ما شــيّدته وروّجته وتروّجه المنظومة المادّيّة من أفكارٍ ورؤًى؛ فزادت هشاشة النفوس وانغماسها أكثر وأكثر في الحياة المادّيّة، وأحاط بها ضعفها عن فهم الخلل الكامن في منظومتها، فانســاق من انساق في الخفاء والعلن نحو الالتحاق بركبها نظريًّا وفكريًّا بعد الاكتساح العمليّ، وبقي كثيرون بل الأكــثر محكومين بالانهماك في شــؤون الحياة وهمومها، وهٰــؤلاء كانوا بين قســمين أكبرهما أولٰئك الّذين تعاطوا بــلا مبالاة مع كلّ

فكرٍ نظريٍّ ، سـواءٌ كان ماديًّا أو غير ماديٍّ، وبقـوا على ما اعتادوه وألفوه وأحبّوه بحكم التربية والعادة من خليطٍ بين الماديّة والدين؛ وأصغرهما أولٰئك الّذين اعتنوا بقدر طاقتهم بالجانب النظريّ، وتشبّثوا بأديانهم وخاضوا غمار المواجهة المباشرة أو غير المباشرة مع الماديّين والملحدين، فنشـأت حالةٌ من الهياج والبلبلة الفكريّة والمعرفيّة، لا زالت أصداؤها تسمع إلى الآن، بل هي في طريقها نحو التجدّد والازدياد.

وفي المحصلـة، يمكننا القول إنّ نجاح المنظومة الماديّة قد كان متمثّلًا في تحقيق أمرين: الأوّل، حصد الأنصار المعتنقين لأفكارها والمنساقين وفقًا لها. والثاني: عزل أكثر الناس في كلّ المجتمعات عن أن يكونوا أصحاب دورٍ فاعلٍ في الحياة الفكريّة بعد أن أدّت النظم الماديّة في الاقتصاد والتعليم والسياسـة والإعـلام إلى إنهاكهم بضرورات كرامة العيش، أو إلهائهم بملهيات اللعب والمتعة الآنيّة. وهٰذا يعني أنّها قد استطاعت أن تعزل أكثر الناس عن دينهم، إمّا كلّيًّا وعلى المسـتويين النظريّ والعلميّ، وإمّا جزئيًّا وعلى المستوى العمليّ فقط. والنتيجة هي التمهيد شيئًا فشـيئًا لصيرورة التديّن شيئًا من التاريخ، وفي أحسن الأحوال مجرّد عاداتٍ وتقاليد!

لقد اسـتطاعت الماديّة أن تنجح إلى حدٍّ كبيرٍ في تحقيق ما تسعى إليه، إلّا أنّ الأمـر لم يقف عند هٰذا الحدّ ولا بقي عنده، بل هناك مرحلةٌ أخرى لاحقةٌ يمكن تسـميتها بمرحلـة إعادة التموضع، عمد فيهـا الماديّون إلى محاولة تدارك المشـكلات الّتي قاد إليها التفريط والإفراط في مسـارات التطبيق لنظمهم، وجرى البحث عن محـاولاتٍ من خارج الرؤية الماديّة، يمكن من خلالها التخلّص من المشكلات الّتي يعاني منها المجتمع، ولٰكن

بقالبٍ عصريٍّ إمّا مع إشـــارةٍ زهيدةٍ إلى المصـــادر الّتي أخذت منها، أو إلى المصـــادر التي بدأ طرحها فيها، بعد تغيير الأســـلوب وطرق العرض وإيهام التجديد والإبداع مـــع جعلها متوافقةً مع الخطـــوط العامّة للمادّيّة، كما حصل مع ما يســـمّى بالتنمية البشريّة الذهنيّة والعمليّـــة والبرمجة اللغويّة العصبيّة؛ وإمّا بالإشارة الصريحة والأخذ المباشر والترويج لنظمٍ أخرى دينيّةٍ قديمةٍ، ولٰكنّها بعيدةٌ كلّ البعد عن الأديان الثلاثة الّتي يريدون عزلها عن الســـيطرة الاجتماعيّة، وهٰذا ما حصل من خلال استقدام رياضتي اليوغا والتاي تشي وغيرهما، بل حصل ما هو أخطر من ذٰلك. وللكلام تتمّةٌ، وفي المقام تفاصيل كثيرةٌ لا يناسب المقام ذكرها.

الخاتمة

إنّ ما يلوّح له هٰذا المقال القصير موضوعٌ حيويٌّ وخطيرٌ، وكثير التفاصيل، وإنّ هناك ترابطًا وثيقًا بين ســـوء الممارســـة الدينيّة والحكم الفاسد والإدارة الفاشـــلة تحت اسم الإلٰه وشـــعار الدين، وبين صعود نجم النقد والتشكيك الّذي ســـيعمل على تقويض مشروعيّـــة الحكم والإدارة الدينيّـــة وصولًا إلى مسألة مشروعيّة الدين نفســـه. وهٰذا الارتباط يضاف إليه ارتباطٌ آخر بين الضعف المعرفيّ والمنطقيّ عند المتديّنين في بناء منظومتهم، وفي بنائهم لجيلٍ يتديّن عن تعقّلٍ ودرايةٍ لا عـــن تقليدٍ وتبعيّةٍ، واختلال كيفيّة تأثيرهم على أتباعهم، وبين تمكن المادّيّين من اختراق مجتمعاتهم وضعضعة ثقة الجمهور برعاتهـــم اللاهوتيّين. لقد تبيّن أنّ المادّيّـــة هي بنت المنهج الحسّيّ المتطرّف، وبالخصوص ذٰلك الجانب المتعلّق بالتشـــكيك بقدرة العقل وحدود معرفته

وموثوقيّة معاييره، كما تبيّن أنّ انتشار المادّيّة ونموّها وتربيتها كان في حضن الضعف والخلل المعرفيّ والفلسفيّ والسلوكيّ للمتديّنين، سواءٌ في بناء رؤاهم أو في ترويجهـــا. وهٰذا يقود إلى نقطةٍ خطـــيرةٍ وبالغة الأهمّيّة، وهي مقدار ما ساهم ويساهم المتديّنون أنفســـهم في دعم المادّيّة والإلحاد من خلال تبنّيهم للمنهج الشكّيّ بلباسٍ لاهوتيٍّ ودينيٍّ صوفيٍّ أو نصوصيٍّ. هٰذا وغيره من الأسئلة أترك مهمّة الإجابة عنها لفرصةٍ أخرى.

وبعد تبقى مهمّة دراســـة مقدار ســـيطرة المنظومة المادّيّـــة بين ظهرانينا وأسبابها ومراحلها، فعسى أن يكون ذٰلك في فرصة أخرى.

قائمة المصادر

المصادر العربية

1. أبو العلاء المعريّ، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمٰن، دار المعارف، 1977.
2. أرسطو طاليس، كتاب الخطابة، تحقيق عبد الرحمٰن بدوي، مطابع الرسالة 1980.
3. إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة غانم هنا، المنظّمة العربيّة للترجمة، 2013.
4. برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربيّة، مكتبة النهضة المصريّة، الطبعة الثانية، 1978.
5. برتراند راسل، حكمة الغرب، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، ترجمة فؤاد زكريّا، الطبعة الأولى 1983.
6. بول هازار، أزمة الوعي الأوربّي، المنظّمة العربيّة للترجمة، ترجمة يوسف عاصي وبسام بركة، الطبعة الأولى، 2009.
7. توفيق الطويل، قصّة الصراع بين الدين والفلسفة، دار النهضة العربيّة، الطبعة الثالثة، 1979.
8. ج. بيوري، حرّيّة الفكر، تعريب محمّد عبد العزيز إسحاق، المركز القوميّ للترجمة، 2016.
9. جورج باركلي، المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، ترجمة يحيى هويدي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1998.
10. جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوربّيّة وحضارتها، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، 1987.
11. جون جريبين، البحث عن قطّة شرودنجر، ترجمة: فطحل الله الشيخ، 2010.
12. جون ديوي، إعادة بناء الفلسفة، المركز القوميّ للترجمة، ترجمة: أحمد الأنصاريّ، الطبعة الأولى، 2010.

13. جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبيّة، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1999.
14. درزويل، تاريخ عصر النهضة في أوربّا، ترجمة وتحقيق نور الدين حاطوم، 1968.
15. ديفيد لندلي، مبدأ الريبة: أينشتاين، هازينبرج، بور والصراع من أجل روح العلم، ترجمة: نجيب الحصادي، 2007.
16. ديفيد هيوم، تحقيقٌ في الذهن البشريّ، ترجمة: محمد محجوب، المنظّمة العربيّة للترجمة، 2010.
17. ريتشارد دوكينز، صانع الساعات الأعمى، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، 2002.
18. ريتشارد دوكينز، وهم الإله، ترجمة: بسام البغدادي، 2009.
19. عادل ضاهر، الفلسفة والمسألة الدينيّة، دار نلسن، 2008.
20. غنار سكيربك، تاريخ الفكر الغربيّ من اليونان القديمة وحتّى القرن العشرين، المنظّمة العربيّة للترجمة، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، الطبعة الأولى، 2012.
21. محمد ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، مؤسّسة الدليل، 2017.
22. محمد ناصر، الفلسفة.. تأسيسها ـ تلويثها ـ تحريفها، نشر أكاديميّة الحكمة العقليّة، 2014.
23. نجيب إسطيفان، صراعات الكنيسة وسقوط القسطنطينيّة، التكوين للطباعة والنشر، 2011.
24. يوسف كرم، الفلسفة الأوربّيّة في العصر الوسيط، دار القلم، الطبعة الأولى، 1988.
25. يوسف كرم، الفلسفة الحديثة، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1986.
26. يوسف كرم، الفلسفة اليونانيّة، دار القلم، الطبعة الأولى، 1990.

المصادر الأجنبيّة

1. Cicero,On Academic Scepticism Marcus Tullius, Charles Brittain (translator), 2006.
2. George Novack,The Origins of Materialism, 1965.
3. Kathleen Freeman, Ancilla to the Pre-Socratic Philosophers, A Complete Translation of the Fragments in Diels, Fragmente der Vorsokratiker, 2003.
4. Lloyd P. Gerson, Brad, The Epicurus Reader: Selected Writings and Testimonia, 1994.
5. Neto, Jos R. Maia, Academic Skepticism in Seventeenth-Century French Philosophy, The Charronian Legacy 16011662, 2014.
6. - Richard H. Popkin,The History of scepticisim From Savonarola to Bayle, 2003.
7. -Robert Bucholz,Foundations of Western Civilization II, 2006.
8. - Wayne Hudson, Diego Lucci,Atheism and Deism Revalued, Heterodox Religious Identities in Britain, 16502014 ,1800-.